تمخض عن أساس جديد للأمل لعمير بيرتس ونتنياهو

رحيل شارون عن الساحة السياسية خلط كل الأوراق.. واولمرت يملك فرصة جيدة للنجاح في قيادة الدولة اذا عرف كيف يدير الأمور في مواجهة العمل والليكود

■ في أواخر آذار (مارس) 2000 توفيت ليلي شارون. في باحة مزرعة شكاميم نُصبت خيمة كبيرة لتقبل العزاء. بيت العائلة الذي كان قد احترق قبل ذلك بثلاثة اشهر انتصب كنُصب تذكاري حزين في طريق الزائرين. شارون جلس على كرسي بلاستيكي ابيض. المعزون تقدموا منه واحدا واحدا. شارون رأى في عيون المُعزين صورته: رجل في الثانية والسبعين من عمره، أرمل للمرة الثانية ورئيس مؤقت لحزب معارض صغير وهابط والذي لم يتبق له الكثير ليفعله في حياته، ربما فقط البكاء على زوجته الميتة والسخرية من أطبائه.

شارون نظر اليهم نظرة باردة معادية. كل من عمل مع شارون أو قبالته كان يعرف هذه النظرة. رابين كان يُغرق الناس. بيريس كان يشتكي. شارون كان يُصغر عينيه وكأنه يُعد ملفا للشخص الموجود قبالته ويضعه في قائمة سرية لا منتهية من الأعداء. عرفت هذه النظرة عن قرب في مناسبات عديدة. نظرته تنغرس في اللحم مثل الحروق والجروح.

شارون لم يرغب في أن يُشفق الناس عليه، فهو يعتبر كل إظهار علني للمشاعر نقطة ضعف. قبل عامين ونصف عندما توفيت والدته أجريت معه محادثة ليلية طويلة عبر الهاتف. هو حدثني بعطف كبير واعجاب عن صلابة والديه وكيف قال له والده وهو على فراش الموت: هل تذكر ما قلته لك، إغفر لكل أعدائك؟ أنا أقول لك الآن إنسَ ما قلته لك، لا تغفر لهم أبدا. الحكاية كانت مثيرة. والدتك، قال في نهاية المطاف، كانت نفس الشيء. اجل، قال لي، ولكن أمي لم تنم مع بندقية تحت فراشها.

قبل خمسين عاما وشهر، في شهر كانون الاول (ديسمبر) 1955، قُتل الرائد يتسحاق بن مناحيم، وهو شخصية نموذجية في تاريخ المظليين وأقرب صديق لشارون منذ الطفولة. شارون ترعرع في كفار ملال. أما بن مناحيم ففي رماتيم المجاورة. كلاهما شاركا في حرب الاستقلال، وتوجها الى الجامعة في القدس معا. شارون أقنع صديقه بالعودة للجيش. ومن ثم خرج في عملية طبريا الانتقامية الكبيرة ضد المواقع السورية في منحدرات هضبة الجولان بقيادة شارون نفسه. يتسحاق بن مناحيم لم يرجع من هذه العملية.

شارون توجه الى رماتيم لنقل الخبر الى والدي صديقه. الأم قالت لشارون كلمات قاسية. شارون لم يطأ ارض تلك الدار منذئذ والتي كانت بالنسبة له خلال طفولته بيتا ثانيا. شارون عموما لم يكن يشارك في الجنازات العسكرية. خلافا للتركة التي تجذرت في حكومات اسرائيل قلل من زيارات التعزية. سلوكه كان شاذا جدا لدرجة أنه تحولّ في فترة حرب لبنان الى قضية سياسية.

موشيه زار، صديقه القديم، يشتري الاراضي والعقارات في المناطق، وهو أحد مؤسسي مستوطنة كرني شومرون. فقد قبل عدة سنوات ابنه جلعاد في عملية في الضفة. شارون الذي كان قد أصبح رئيسا للوزراء استقل مروحية وتوجه الى هناك. شارون جلس على كرسي صغير قبالة الأب الذي ثكل ابنه. أبناء العائلة اتهموه واتهموا سياسته بالتساهل. كل ذلك كان أمام عدسات الكاميرا من اجل الدعاية.

شارون ركز ناظريه على صديقه الأب وقلل من الحديث. هو كان متوترا مضغوطا ومعذبا. إن لم أكن مخطئا فقد كانت هذه هي آخر مرة أو احدى المرات الأخيرة التي يقوم بها بزيارة تعزية من هذا القبيل.

وعي التغيير

ميريت دانون، سكرتيرة رابين وبيريس وباراك وشارون الوفية والمحبوبة (في فترة نتنياهو أخذت استراحة مؤقتة)، جلست أمس في ديوان رئيس الوزراء اليتيم. هي قالت لأحد زملائها في الديوان إن مشاهد تشرين الثاني (نوفمبر) 1995 تعود وتطفو في ذاكرتها: الغرفة الفارغة والأمل الذي لم يتحقق.

الحزن مثل الفرح هو مُنتج ضخم للادرينالين. مستشارو رئيس الوزراء ومساعدوه قطعوا أروقة مستشفى هداسا طوال الليل جيئة وذهابا بصورة محمومة. حتى أمس الاول مساء كانوا جزءا من جهاز أدى دوره بشكل جيد ـ خصوصا بالمقارنة مع دواوين رؤساء الوزراء السابقين. شارون كان المحرك وهم كانوا الدواليب. الآن فقدت هذه الآلة محركها. مصير شارون لم يكن بأيديهم ولا بيديه ايضا. هو يصارع من خلف الأبواب المغلقة في غرفة العمليات. بعد نهار طويل وأعصاب ممزقة لم يتمكنوا من أخذ قسط من الراحة، فالادرينالين جعلهم يتواثبون من اماكنهم.

ولدا شارون كانا هناك وأديا دورهما بشكل جيد ولائق، وتصرفا وكأن الوالد كان ينظر اليهما. هما ايضا كانا غارقين في الادرينالين. كلما استطال الليل أدرك الجميع أن الأصغر، جلعاد، هو الأقرب لوالده من بين الاثنين، وهو المفوض الرسمي من قبل العائلة. جلعاد أمر بادخاله المستشفى وكان الى جانبه في سيارة الاسعاف ووقف بجانب سريره وبقي في المستشفى طوال الليل وفي اليوم التالي.

هناك تغير هائل حدث في تأثيرهما على القرارات الوطنية. شارون أكثر من التشاور معهما ومن سيأتي بعده لن يفعل ذلك. نفس الشيء يُقال عن الطاقم الذي عمل حول شارون. اولمرت سيُحسن صنعا اذا أقنع مساعدي شارون بمواصلة العمل معه على الأقل في المدى المنظور، إن لم يكن لاسباب شخصية فلاسباب قومية وطنية. على المدى الأبعد سيرحلون كل في طريقه.

سكرتير الحكومة، يسرائيل ميمون، كان يعالج الجوانب الرسمية لنقل الحكم: اتصل بايهود اولمرت واتصل بالوزراء (شمعون بيريس، كما علمت أوشك على البكاء) واتفق مع المستشار القضائي للحكومة حول تسلسل الخطوات.

المؤشرات الحقيقية لنقل الحكم كانت الحُراس. في المساء أغلق أفراد وحدة مرافقة الشخصيات الهامة الشارع الذي يقطن فيه اولمرت في القدس. الحراسة عليه تغيرت دفعة واحدة وأصبحت في مستوى يتلاءم مع مكانة رئيس الوزراء. في الصباح استلم اولمرت السيارة المحصنة التي تُصرف عادة لرئيس الوزراء، والسائقين المرافقين. السكرتيرات في ديوان رئيس الوزراء اتصلن بالهواتف المحمولة الموجودة بسيارة شارون ـ فكان اولمرت على الخط الثاني. هذه كانت اللحظة التي علمنا فيها فجأة بالتغير الحاصل بكل ثقله.

السكرتير العسكري لرئيس الوزراء، الجنرال غابي شمني، الذي تعرف على شارون في الآونة الأخيرة فقط وأُعجب به من كل قلبه، توجه لاعطاء تقرير لاولمرت. هذه وظيفته. اولمرت تلقى التقارير ايضا من قبل، ولكن التقارير التي تصل للقائم بالاعمال لا تشبه التقارير التي تصل لرئيس الوزراء فعليا. هناك يطلبون قراره وليس مشورته.

رئيس الوزراء الثالث لاسرائيل، ليفي اشكول، توفي في عام 1969. موته كان مفاجئا، خلال ساعات أدركوا في «الشاباك» أن المنصب سينتقل لغولدا مائير التي كانت عضو كنيست في ذلك الحين. على الفور أُرسل الحُراس الى منزلها في رمات أفيف القديمة. في ذلك اليوم شاهد الجيران صورة غير اعتيادية: رئيسة الوزراء القادمة امرأة في سن متقدمة تخرج الى الشارع لافراغ سلة القمامة. وعلى الجانبين سار من حولها حارسان لحمايتها، ولكن أحدا منهما لم يفكر بإفراغ سلة القمامة بدلا منها.

فرصة عُمره

كان لايهود اولمرت عقل ومذاق جيد بعدم المسارعة في احتلال ديوان رئاسة الوزراء. الصباح قضاه في مبنى جينري المجاور في مكتب واسع يعود له كوزير للصناعة والتجارة. جلسة الحكومة عُقدت في التاسعة صباحا في غرفة الاجتماعات الثابتة في الطابق الثالث من ديوان رئيس الوزراء. اولمرت أعد خطابا وقرأه عن الورقة. الوزراء لعبوا دورهم واحدا واحدا. ليمور لفنات التي كانت قد هاجمت شارون بصورة رهيبة قبل ذلك بيوم على خلفية قضية شلاف، أغرقته بالتضامن المطلوب في مثل هذه الاحوال. بالنسبة لها ولباقي وزراء الليكود، يوجد في رحيل شارون عن الساحة مكسب على المدى القصير: فقد تخلصوا من الحاجة للاستقالة. في مطلع الاسبوع كانوا قد خاضوا صراعا ضد نتنياهو الذي طالبهم بالاستقالة الفورية. هم أصروا على تأجيل استقالتهم الى ما بعد عملية القسطرة لمعرفة اذا كان وضع شارون سيتعقد، الأمر الذي يلغي ضرورة الاستقالة.

الخطوة كانت صائبة. رحيل شارون عن الساحة السياسية افترس كل الأوراق. هو تمخض عن أساس جديد للأمل حتى عند عمير بيرتس وعند نتنياهو ايضا. وفرض على كديما اختبار نضج من قبل أن تتحول الى حزب جديد. لو كان شارون قد مر بهذا الحدث الفتاك قبل شهر ونصف لما وُلدت كديما لهذا العالم. ولو كان قد اختطف هذا الحدث قبل اسبوعين لسقطت الحكومة ولتشكلت، ربما، حكومة بديلة. ولو كان مر بهذا الحدث بعد ثلاثة اشهر من الآن، عشية الانتخابات، لانهارت كديما في صناديق الاقتراع.

الاشهر الثلاثة القادمة ستكون على ما يبدو فرصة حياة ايهود اولمرت. لديه وقت كاف لتنصيب نفسه كقائد وطني وكقائد لحزب شارون. هو موهوب ومُجرب ويقف مع ساقين على الارض. حاد، وربما حاد جدا: في السابق استطاع كسب عدد غير قليل من الباغضين بسبب فظاظته ونزعته للتصادم واستهزائه بالاشخاص الذين لا يحترمهم.

السياسة هي لعبة الفرص. قال لي في هذا الاسبوع أحد كبار السياسيين: خُذ شارون مثلا: في كانون الاول (ديسمبر) 2000 تنازل نتنياهو عن خوض المنافسة على رئاسة الليكود ورئاسة الوزراء لانه خشي أن يكون رئيسا للوزراء ومن خلفه 19 عضو كنيست فقط من الليكود. لولا أنه قام بهذه الحماقة لما وصل شارون الى رئاسة الوزراء خلال السنوات الخمس الأخيرة، وربما كان في هذه الاثناء متقاعدا يلهو بين خرافه في المزرعة. هو كان سينهي مسيرته السياسية كيميني متطرف يحبه عدد قليل ويكرهه الكثيرون. كانت أمام شارون فرصة سانحة فتلقفها (كما تسنت لرابين في 1974 و1992 وللكثيرين غيره).

سيرة شارون القتالية التي نُشرت بالانكليزية فقط في عام 1989 تُدعى «المقاتل». أما سيرته الاخرى التي تثني عليه فقد نشرت في عام 2005 وسُميت «الراعي». الفرصة السانحة هي التي أتاحت لشارون التحول من المقاتل الى الراعي أبي الأمة.

أما هذه الفرصة فقد أصبحت الآن بيد ايهود اولمرت. قبل سنة ونيف كان مترددا بين قرار التنحي والتوجه لعالم التجارة وبين المواصلة في المعترك السياسي. لو كان اولمرت قد ترك منصبه في حينه لكان من المشكوك فيه أن يتمكن شارون من فك الارتباط وهو بالتأكيد لم يكن ليستطيع الانشقاق عن الليكود.

مواقف اولمرت مثل شارون اجتازت تغيرا هاما. هو تحرك من الرؤية السياسية الجارفة التي تبتلع كل شيء، رؤية عدم التنازل عن أي شبر، نحو طريق التسوية. عندما وصل شارون الى رئاسة الوزراء قال (الأصح أنه تبنى عنوانا في الصحيفة) بأن ما يرونه من هنا غير مرئي من هناك. اولمرت استبق الأحداث وشاهد الامور من قبل أن يصل الى «هناك»، الى رئاسة الوزراء. هو سبق شارون في دعمه لفك الارتباط واستعداده لتدارس الانسحاب من الأحياء العربية المحيطة بشرقي القدس. هناك قدر غير قليل من السخرية في حقيقة ان اولمرت هو الذي ابتدع الشعار الفتاك «بيريس سيُقسم القدس»، ولكنه الآن سيقف على رأس حزب سيكون شمعون بيريس نفسه أحد وزرائه، وأن نظاما جديدا سيترسخ في القدس إن عاجلا أو آجلا.

ما هي تركة رابين؟ هل هي البؤر الاستيطانية التي بناها أو تلك التي أخلاها؟ هل هي معايير القتال التي علمها للجيش الاسرائيلي في مطلع الخمسينيات أم المعركة المثالية التي خاضها في أم كتف في عام 1967 وعبور القناة في 1973 أم أنها ورطته الكبيرة في لبنان 1982؟ هل هي التمسك العنيد بهذه الارض وكل ما ينبت عليها ويعيش فوقها أم أنها عدم احترام القانون وقوانين اللعبة العامة التي وصلت الى الذروة في المخالفات العائلية لقوانين الانتخابات والاستخفاف بنتائج الاستفتاء الشعبي في قضية فك الارتباط في الليكود رغم أن شارون كان قد تعهد علانية بقبول النتائج؟.

دور القائد في اسرائيل حافل بالتناقضات. في كل يوم يُقتل اشخاص بسبب الأوامر التي تصدر عنه. هو ملزم بتعويد نفسه على درجة معينة من البلادة الحسية. وعليه أن يكون متعصبا للفكرة الأساسية التي رسخت دولة اليهود هنا في قلب منطقة معادية. ومع ذلك هو ملزم بالبرهنة لناخبيه وللعالم على أنه براغماتي وراغب في التسوية والهدوء والاستقرار. عندما يكون في المعارضة يتوقعون منه أن يكون «ايديولوجيا». أما في الحكم فيتوقعون منه أن «يتموسط».

هذا الشرك يجعل بلورة تركة محددة مسألة صعبة جدا. في مباي كان تيار، وهو تيار بن غوريون الذي لُقّب بـ«النشط». شارون كان طوال كل مسيرته نشيطا فعالا: هو اعتقد أنه اذا كانت لدى الدولة أدوات ووسائل فعليها أن تستغلها. الجيش مُعد للهجوم والقتال، والارض للاستيطان والسكن عليها، والبلدوزرات للبناء أو للهدم، كل ذلك وفقا لارادة من يقودها.

هو آمن بالقوة واستخدامها. من التغطية على قتل البدو انتقاما لقتل الاسرائيليين اللذين كانا يتنزهان جنوبي الضفة في الخمسينيات وحتى اخلاء مستوطنات غزة وشمالي الضفة.

شارون قام باخلاء مستوطنات مرتين، أول مرة في ياميت حيث كان مقاولا لعملية الاخلاء لدى بيغن، وندم بعد ذلك. ومن ثم عاد وندم على ندمه. وفك الارتباط عن غزة الذي يقع كله على كاهله. هذا الانسحاب حسّن وضعنا السياسي والأمني كما هو متوقع، ولكن زاد ضغوط القسام على سدروت وأوصلها الى بوابات عسقلان. بدلا من تعزيز السلطة الفلسطينية تحولت غزة الى دفيئة للفوضى.

أهمية فك الارتباط الهائلة هي تأثيرها على المجتمع الاسرائيلي. شارون وجه ضربة بالغة لأسطورة الاستيطان في المناطق. الدعم الشعبي الذي حظي به بعد فك الارتباط لم يكن أقل أهمية في مستواه من فك الارتباط نفسه: كتلة هائلة في الوسط السياسي خرجت من التابوت. هو يصرح الآن جهارا بأنه قد ملّ المناطق. هذه هي الفرقعة والتي لا يمكن لأي أحد سوى شارون أن يُحدثها.

ولكن من دونه ليس من المؤكد أن كديما سيتمكن من الحفاظ على مكانته في الاستطلاعات، وسيكون هناك أناس يعودون الى بيتهم في الليكود أو العمل. إلا أن التغيير الذي أحدثه لن يموت.

هو لم يثق بوجود شريك عربي. إن كنت قد فهمته بصورة صحيحة، فموقفه من المشكلة العربية لم يتغير كثيرا منذ طفولته في كفار ملال: من الممكن اقناع العربي بالمال أو بالضرب ولكن ليس بالمفاوضات ندا لند. ليس صدفة أن الاتفاق الوحيد الذي توصل اليه شارون مع طرف عربي كان الاتفاق الذي فرضه على حكومة لبنان في عام 1982، إلا أن هذا الاتفاق سرعان ما زال بعد توقيعه.

شارون وصل الى رئاسة الوزراء وهو ناضج ومُجرب. هو قاد الدولة طوال خمس سنوات صعبة بمهارة سياسية وبرود أعصاب وحذر وعقلانية. هو كان مستعدا لدفع ثمن باهظ لكسب ثقة الرئيس الامريكي، وقد نجح في ذلك. كما أن صورته في الغرب وفي جزء من الشرق الاوسط قد تغيرت من النقيض الى النقيض. ذات مرة اعتُبر طاغية مصابا بجشع الاراضي. الآن يعتبر براغماتيا مقداما. «عندما يطرح اسم شارون في أي وزارة خارجية»، قال لي فَي هذا الاسبوع دبلوماسي اجنبي، «يكون الرد المباشر هو أنه شجاع». لشدة السخرية، صورة اسرائيل تحولت الآن الى أقل وردية من صورة شارون. هناك أزمة عميقة في العلاقات مع روسيا، هناك ازمة في العلاقات مع البيروقراطية الامريكية. السلطة الفلسطينية تنهار أمام أعتابنا وايران تطور قدراتها النووية رغم أنوفنا. «شارون سيجلب السلام»، هذا كان شعار الليكود في 2003. شارون جلب فك الارتباط وانخفاضا في الارهاب ونموا اقتصاديا متجددا، ولكن أين السلام وأين نحن؟.

ناحوم برنياع
محرر رئيس للصحيفة
(يديعوت أحرونوت) 2006/1/6

صورة من الارشيف تجمع بين ارييل شارون وايهود اولمرت

طرح حلولا جديدة لتغيير الواقع مقنعة خارجيا ولكنها ترمي الى أهداف اخرى من الجوهر

شارون يغيب تاركا فوضى سياسية في الداخل.. وفوضى عارمة لدى الجيران

■ في الايام الجيدة ايضا، وقبل مدة طويلة من انتظار الجميع لما سيقوله الاطباء في هداسا، كان دماغ اريل شارون أحد الاماكن الأكثر إثارة للفضول في العالم. خططه السياسية، اذا كانت لديه مثل هذه الخطط، كانت قادرة، لو طُرحت، على بلورة هوية دولة اسرائيل وحدودها. رؤيته، لو توفرت، كانت قادرة على تغيير وجه الشرق الاوسط. المقربون منه نشروا أنباء عن أن دماغ شارون الجديد حافل بالمشاريع والمزيد المزيد من فك الارتباط أحادي الجانب. شارون نفى ذلك. الشائعات التي بثها المستشارون حول رؤيته السلمية من طراز 2006 حولّته الى حبيب لليسار. إلا أن شارون دحض ذلك ايضا.

شارون يترك من ورائه، ليس فقط فراغا قياديا وانما ايضا فراغا ايديولوجيا واستراتيجيا. لا يعرف أحد الى أين كان سيتوجه الشخص الذي كان من المفترض أن يقود اسرائيل على رأس حزب جديد. كيف رأى بينه وبين نفسه مكان اسرائيل في المنطقة، والعلاقات مع العالم العربي، ليس فقط بعد عشرين أو خمسين أو مئة سنة فقط، وانما بعد عام أو عامين؟ ما الذي قصد اليه فعلا عندما تحدث عن «دولة فلسطينية»؟ هل افترق فعلا ونهائيا عن الخيار الاردني؟ وهل عبرت كلماته عن الاحتلال فعلا عن محن شعب آخر؟ وهل فك الارتباط عن غزة كان بداية لعَملية ترسيم حدود الدولة أم مجرد خدعة للخلاص من مليون ونصف فلسطيني بثمن بخس؟.

لو طُلب من وزارة التربية والتعليم اليوم، في السادس من كانون الثاني (يناير) 2006، اعداد تركة لشارون، لكانت الورقة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها هي برنامج كديما، حزب شارون. هذا الحزب الشكلي حاليا. المؤلف لن يجد هناك، ولو بالتلميح، كلمة عن الانسحاب أحادي الجانب القادم. ولكنه في المقابل سيجد برنامجا من اعداد تسيبي لفني، ويجد «خريطة الطريق»، الوثيقة التي زال مفعولها بصورة رسمية قبل اسبوع تقريبا، ولكن لم يكن لها أي مفعول أبدا بصورة فعلية. شارون تمتع بسرين سحريين، الاول، الانسحاب أحادي الجانب، والثاني ذلك الغمز الذي يرافق تصريحاته المؤيدة لخريطة الطريق. اذا كان حزب كديما سيحصل فقط على من يصدقون بأن شارون قد قصد ما قاله عن تطبيق خريطة الطريق، لكان من المشكوك فيه أن يجتاز هذا الحزب نسبة الحسم.

من اجل إطراء السامعين يجدر ان نذكر أن خريطة الطريق التي تبنتها الحكومة مع 14 تحفظا، تتحدث عن أن المفاوضات حول التسوية الدائمة ستولي أهمية خاصة لقرار قمة بيروت العربية في كل المسارات بما فيها المسار السوري ـ الاسرائيلي واللبناني ـ الاسرائيلي. قرار الجامعة العربية في آذار (مارس) 2002 اقترح السلام مع اسرائيل مقابل انسحاب كامل لخطوط حزيران (بما في ذلك في الجولان)، وتطبيق قرار الجمعية العمومية 194 الذي يتيح للاجئين الفلسطينيين الاختيار بين العودة وبين التعويض. من هو المؤرخ الذي سيتجرأ على إدخال هذه العبارات في فصل حول تركة شارون؟.

ارهاب

هذا لا يعني أن خريطة الطريق غير جديرة بمكانة محترمة في تركة شارون. هذه الخريطة ظهرت كوسيلة ناجعة بدرجة لا توصف لإزالة تركة اوسلو. أهم انجاز لتركة اوسلو كان فتح مسار سياسي مباشر بين اسرائيل والمنظمة التي تمثل الشعب الفلسطيني، والتمسك بالمفاوضات رغم العمليات الارهابية. شارون أخرج البند الذي يلزم السلطة الفلسطينية بتفكيك البنى التحتية للارهاب من خريطة الطريق وأقنع بوش بتبني تفسيره القائل إن «البنى التحتية» تشمل ايضا مكاتب حماس في المناطق.

بمساعدة الهجمة الارهابية التي شنُت على الولايات المتحدة في 2001 والحرب في العراق واليمين المسيحي والعمليات الانتحارية الفلسطينية وأكاذيب ياسر عرفات ـ نجح شارون في قطع الصلة بين مكافحة الارهاب وبين دفع عملية السلام الى الأمام. هو أقنع الأسرة الدولية بأن فك الارتباط السياسي ليس دافعا للطرف المحتل حتى يوقف عنفه وانما إثابة لحسن سلوك الطرف الخاضع للاحتلال. من الصعب التصديق أن شارون نفسه اعتقد أن عرفات وأبو مازن سينجحان في المكان الذي فشل فيه الجيش الاسرائيلي و«الشاباك»، لذلك تغلب على العنف بواسطة العنف.

مع ذلك، ليس هناك مؤشر على أنه أدار ظهره لموقف «كي الوعي» لدى الجيران أو «التدمير البنّاء» للبنى التحتية والاقتصادية في المناطق. وزير الدفاع شاؤول موفاز ورئيس «الشاباك» السابق آفي ديختر فسرا غمزات شارون كتعليمات مبدئية لمواصلة القبضة الفولاذية تجاه السكان المدنيين وغض البصر عن العنف المتزايد لدى الجيل الشاب من المستوطنين. ضغط الاغلاقات والحواجز والاعتقالات وعمليات الاغتيال، أدت الى انهيار الحكم المركزي في المناطق. ولكن الجمهور الفلسطيني يرفع راية حماس الخضراء بدلا من أن يرفع الراية البيضاء.

لشدة السخرية قبل يوم من اقتياد شارون الى المستشفى، وبعد أن تفاخر أعوانه بانخفاض عدد العمليات، أشرك رئيس «الشاباك» يوفال ديسكن اعضاء لجنة الخارجية والأمن في الكنيست بقلقه من ضعف مكانة السلطة وفقدان السيطرة على الارض. حماس لقّبت من قبله كـ«مصيبة كبرى». هو قال إن حماس هي الطرف المسيطر على الارض منذ انسحاب الجيش الاسرائيلي. وتوقع أن ينجح الاسلاميون في الانتخابات وأن يبذل ممثلوهم كافة الجهود للسيطرة على وزارات التربية والتعليم والصحة والرفاه الاجتماعي للتأثير على الناس وما يتعلمونه. حماس ستحاول، حسب رأيه، السيطرة على مواقع القوة في البرلمان والتأثير على التشريعات. ديسكن أكد أنه رغم أن حماس ليست نشيطة الآن في الاعمال الارهابية ضد اسرائيل، إلا أنها تُدرب وتُمول وتُرسل الخلايا لتنفيذ العمليات.

من الممكن تفسير هذه الامور كعلامة راسب لسلفه في المنصب، آفي ديختر، والمسؤول المباشر عنه ارييل شارون. ماذا ستكون السياسة الجديدة التي سيتبعها الجيش و«الشاباك» في المناطق وفقا لتعليمات المستوى السياسي؟ هل سيحصل ديسكن على تفويض بتخفيض عدد الاغلاقات والحواجز؟ وربما يفقد موفاز سيطرته ويُرسل الجيش الاسرائيلي للاغتيال والقصف بصورة أشد وأكبر في غياب شارون؟ المنسق الأمني ـ السياسي لموفاز، عاموس جلعاد، قال قبل ثلاثة اسابيع للدبلوماسيين الاجانب أن الحكومة تدرك جيدا مصلحتها الكامنة في إعمار المناطق، ولكن ممثل البنك الدولي في المناطق، نايغل روبرتس، يقول إن هذا الادراك ليس ملموسا على الارض.

حل الدولتين

شارون تنازل عن حلم ارض اسرائيل الكاملة لصالح الواقع الديمغرافي. اتفاق السلام مع الاردن أجبره على التنازل ايضا عن حلم «الاردن هو فلسطين»، لصالح تسوية اخرى. لا يعرف أحد تفاصيل هذه التسوية. على الورق أعطى شارون موافقته المبدئية على حل الدولتين، دولة اليهود في الجانب الغربي من الجدار الفاصل، والدولة الفلسطينية في الشطر الشرقي. فك الارتباط عن غزة يهدف الى عزل غزة عن الضفة والالقاء بها مرة اخرى الى مصر. هذا أحد الاسباب وراء موافقة شارون على فتح معبر رفح حتى بثمن إدخال مراقبين اوروبيين رغم أنه لم يثق بالاوروبيين أبدا.

برنامج كديما يقرر أن «انهاء الصراع سيتمثل باقامة دولتين قوميتين على أساس الواقع الديمغرافي بحيث تعيشان بسلام وأمن الى جانب بعضهما البعض». موافقة اسرائيل على اقامة دولة فلسطينية مشروط بأن تكون هذه الدولة ايضا الحل المطلق «لكل الفلسطينيين كائنا من كانوا بمن فيهم اللاجئون».

كديما على الورق ترى في دفع عملية السلام مع الفلسطينيين هدفا مركزيا ستسعى له بكل وسيلة ممكنة لوضع أسس بلورة حدود دولة اسرائيل الدائمة ضمن تسوية سلمية تضمن مصالح اسرائيل القومية والأمنية. هذا على الورق.

أما فعليا، فقد كان هدف شارون المركزي هو انتزاع مكانة الشريك من السلطة الفلسطينية. أما تحدي السلام والأمن اللذين لا يتحققان إلا من خلال المفاوضات الثنائية، فقد رمى شارون الى توريثه لجيل أو ربما لأجيال قادمة.

هو نفسه أراد الاكتفاء بتسوية مؤقتة أحادية الجانب تُفرض بواسطة الجدار الفاصل واخلاء عدد محدود من المستوطنات. هل سيتبنى ورثة شارون سياسة الإملاءات للجيران مع استغلال تفوق اسرائيل العسكري الهائل أم سيعترفون بالضرر المتراكم وبعيد المدى لنمو التعصب الاسلامي فوق أنقاض الحركة القومية الفلسطينية؟.

الحدود

من دون شك يمكن القول ان عنوان تركة شارون هو أن حياة الانسان والحلم الصهيوني أهم من الارض ومن واجب توطين البلاد. ما كان حتى عهد شارون وفك الارتباط، كما كان اليسار والوسط الاسرائيلي يدعوان اليه، تحولّ الى اجماع وطني. شارون برهن على أن وجود جمهور مساند وحكومة قوية وقوات أمنية مخلصة، قادر على تقسيم البلاد من دون تقسيم الشعب. ولكن الطريقة التي اختارها لتنفيذ العملية الجراحية أسهمت بدرجة غير بسيطة في تفكك المجتمع الفلسطيني في الضفة وازدياد التهديد على التجمعات الشمالية الاسرائيلية في النقب. من المبكر أن نقول ان فك الارتباط أحادي الجانب سيتكرس في الوعي الجماهيري كسابقة ايجابية تشجع عملية الانسحاب مرة اخرى في الضفة. شارون تغلب على عقبة التواصل الجغرافي للمناطق الفلسطينية بواسطة اختراع أخذه من الدول التابعة في جنوب افريقيا (البنتوستانات) ـ تواصل على مستوى المواصلات. هو نفسه قال انه طرح خارطة الضفة على أبو مازن في أحد لقاءاتهما واقترح عليه حفر أنفاق تربط شمالي الضفة بجنوبها على شاكلة طريق الأنفاق الذي يربط غوش عتصيون في القدس.

في الآونة الأخيرة تزايدت الشائعات عن أن شارون يفكر بصورة معمقة بتعويض الفلسطينيين عن التجمعات الاستيطانية في المناطق باعطائهم مناطق بديلة في منطقة أم الفحم (حسب ما يقترح أفيغدور ليبرمان). شارون نفى هذه الشائعات على أسماء ممثلي عرب اسرائيل الذين كان يغازلهم قُبيل الانتخابات.

شارون بدأ يبلور حدود دولة اسرائيل الدائمة بواسطة بناء جدار الفصل وضم المناطق في خط التماس بذرائع أمنية. الجدار تحول في وعي الجمهور الاسرائيلي والعالمي الى خط حدود مستقبلي لاسرائيل مع الدولة الفلسطينية، ولكن الجانب الفلسطيني صاحب هذه الارض قانونيا لم يكن شريكا للتسوية الاقليمية على طريقة شارون. هل سيطرح خلفاء شارون على المحك دعم الجمهور الفلسطيني الآخذ في التناقص لحلول وفق مشروع كلينتون واتفاق طابا؟.

عندما خرج شمعون بيريس من حزب العمل قال ان شارون وحده القادر على دفع اسرائيل نحو السلام. لا كديما ولا اولمرت ولا لفني ـ شارون فقط. فهل يحتمل أن مصير دولة اسرائيل قد كان بيد شخص واحد محدود العُمر والذي رحل من دون أن يترك خلفه أي شيء؟ فقط فوضى سياسية في الداخل، وفوضى عارمة لدى الجيران.

عكيفا الدار
كاتب رئيسي في الصحيفة
(هآرتس) 2006/12/6

اولمرت سيقود التسوية المطلوبة مع الفلسطينيين الى مسافات بعيدة

محاولة بعض السياسيين ادراج المواضيع والاهتمامات الاجتماعية في بوتقة الدعاية الانتخابية ليست الا تهربا من مواجهة النزاع الاسرائيلي الفلسطيني

■ في الأيام القادمة، سوف يذكرنا ايهود اولمرت برئيس الوزراء الاسبق ليفي اشكول، فقد صَعُب على الاسرائيليين الصفح عنه لانه ليس كبيرا مثل دافيد بن غوريون، وكذلك، فان ارييل شارون لن يترك فضاءا فارغا، مثله مثل بن غوريون، وأنه كما كان اشكول وزيرا للمالية فان اولمرت وزير للمالية وسياسي مهني بالحجم الطبيعي، فهو مجرِّب للغاية وسوف يظهر كرئيس لحكومة اسرائيل التي تحتاجه على ضوء حقيقة أنه يتمتع بشعبية مثل شارون، وربما بالاساس هذه هي الميزة المهمة في هذه الاوقات.

لم يحظ احد من رؤساء الحكومات التي خلفت بن غوريون، بما فيهم غولدا مائير، مناحم بيغن واسحق رابين بشعبية كبيرة كالتي تمتع بها اريل شارون، وربما كان السبب في ذلك أن شارون تمكن خلال حياته السابقة من عدم صبغ نفسه بصبغة السياسيين، مثله مثل بن غوريون فقد صبغ نفسه بصبغة الدولة ذاتها.

شارون كان وظل رجلا عسكريا، وحتى حين اصبح رئيسا للحكومة فانه حرص على ادارة الدولة كقائد عسكري أعلى وليس كمواطن يتساوى مع غيره من مواطني الدولة. معظم الاسرائيليين أيدوا الانسحاب من منطقة غوش قطيف، ومن المشكوك فيه أن يتمكن سياسي لا يتمتع بالقدر نفسه من القوة من الاقدام على خطوة كهذه، وحتى لو حكمت العدالة التاريخية وأقرت بأن شارون كان محقا حين قرر تفكيك مستوطنات يهودية في قطاع غزة وفي شمال الضفة الغربية، فانه من الصعب للغاية ادراج هذه العملية ضمن الساعات الجميلة للديمقراطية الاسرائيلية.

وبعد مرور حوالي أربعين سنة منذ دخوله للساحة السياسية والعمل فيها، وبعد أن فهم كل منحنياتها ومداخيلها فإنه يُصنف مع مجموعة السياسيين الاكثر سخرية في توجهه، ولكن الى جانب بنيامين نتنياهو وعمير بيرتس فانه يشكل النموذج الاكثر تحديدا للديمقراطية.

إنهم يعرفون ماذا يفعلون وماذا لا يمكن فعله، وعلى عكس شارون فلم يدخل الى السياسة أي منهم بعد مسيرة عسكرية تاريخية طويلة، ولا أحد منهم اتصف بصفته المعروفة كـ«اب قومي» ومع ذلك فان الحاجة الفجائية الطارئة لمن يخلف شارون لا يصاحبها وجود جو من اليتم، ومن الخيارات المطروحة الان امام الناخب الاسرائيلي للاختيار تبدو خيارات مهنية خالصة. والى جانب هؤلاء يوجد عدد من السياسيين الذين سيقفون الى جانب هؤلاء (اولمرت، نتنياهو أو بيرتس) عددا من البدائل التي لا يمكن وصفها بالعمالقة او الاقزام.

الحاجة لسياسي مهني تكون شخصيته ليست بعيدة عن قدراته الفعلية الحقيقية تقوى اكثر فأكثر نتيجة الاستهزاء المتصاعد ضد الديمقراطية، وان هذا الشعور بات يشكل قاسما مشتركا لدى الكثيرين من الاسرائيليين الى درجة التخوف والامتناع عن المشاركة فيها. حتى الان لا يوجد خطر كبير يحدق بالديمقراطية الاسرائيلية، فحتى وقت غير بعيد فان هذا الشعور كان يأتي مصاحبا للتشوق اثر وجود زعيم قوي يمكنه العمل اذا ما اضطر لذلك، بصورة منفردة ولا ينتظر مشاركة مواطنين في قراراته المصيرية، وهذا مثلا ما فعله شارون حين رفض اخضاع قراره الانسحاب من غزة لتصويت الجمهور الاسرائيلي وموافقته.

وعلى هذا المنوال، فان الموضة الجديدة التي تدرج «المواضيع الاجتماعية» في اطار سلم الاختيار الديمقراطي في الانتخابات، فانها ولا شك ليست الا محاولة خفية للتهرب من ضرورة التعامل مع موضوع حل النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني. فهذا ولا شك يجب أن يكون الموضوع الاساسي الذي يجب وضعه في محور العملية الانتخابية، فمن الاسهل جدا الجدل والنقاش حول الحد الادنى للاجور من الحاجة للنقاش والجدل حول عملية اخلاء مستوطنات من مدينة الخليل. لا أحد يعرف الى أين كان اريل شارون يريد توجيه هذا النزاع فيما لو واصل عمله ومنصبه. ربما كان سيعكف على بلورة الحدود النهائية للدولة، ويجب الملاحظة بأن رفضه (شارون) اجراء المفاوضات مع الجانب الفلسطيني الان لا